

قال سبحانه وتعالى: **"وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ"** (إبراهيم-5)

وقال سبحانه عز وجل: **"وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"** (الأنبياء-107)

وقال جل وعلا: **"قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ"** (يونس-58)

شهرنا هذا أمها الإخوة الكرام، هو شهر مولد النبي ﷺ. في مثل هذا الشهر الكريم ولد المصطفى ﷺ، فانطلاقاً من قوله تعالى: **"وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ"** أذكر نفسي وإياكم في هذا الشهر خلال خطب الجمعة بهذا الحدث العظيم. فالرسول ﷺ أرسله الله عز وجل رحمة للعالمين كما قال الله عز وجل في كتابه الكريم، وكما قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: **"قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعْنًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"** (صحيح مسلم) فالرسول ﷺ بعث رحمة لكل الكائنات، والفرح برحمة الله ثابت بنص الكتاب كما قال الله عز وجل: **"قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا"** فالرسول ﷺ رحمة. والفرح برحمة الله واجب كما أمر الله عز وجل. والفرح برسول الله ﷺ يكون في كل وقت وحين، وليس في يوم أو شهر محدد، بل الفرح به ﷺ ينبغي أن يكون دائماً وأبداً باتباع نهجه والاقتراء بسنته والتخلق بأخلاقه ﷺ.

واليوم إن شاء الله سنقف مع إرهاصات وأحداث وقعت قبل مولده ﷺ، وهي توصي وتؤذن بمولده ﷺ سنقف مع أعظم وأجل هذه الأحداث وهي حادثة الفيل التي أنزل الله عز وجل فيها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، قال سبحانه: **"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ"** (الفيل) فحادثة الفيل من أعظم الحوادث التي سبقت ميلاد النبي ﷺ.

جاء في كتب السيرة أن رجلاً يقال له أبرهة الحبشي كان نائباً للملك الحبشي على اليمن، وكان يرى العرب يحجون إلى الكعبة بيت الله الحرام، فيعظمونها ويتوافدون إليها أفواجا، فلم يستقر حاله لذلك، وأراد أن يبعد الناس عن الكعبة ويصرفهم عنها، فقام ببناء كنيسة كبيرة (القليس) بصنعاء اليمن، ليتوجه الناس إليها ويتركوا الكعبة المشرفة، فسمع رجل من العرب بهذا الخبر، فأتى الكنيسة وقضى فيها حاجته وعاد إلى قبيلته، فسأل أبرهة عن الفاعل فقيل له: رجل من العرب، من أهل البيت الذي تحج إليه العرب بمكة. فغضب أبرهة لذلك وأقسم ليذهبن إلى الكعبة لهدمها. فأمر الحبشة فتهيأوا وتجهزوا للخروج إلى مكة، وأخذوا معهم فيلاً ضخماً ليستعملوه في هدم الكعبة بيت الله الحرام. ولما سمعت العرب بقدمه، رأوا بأن قتاله واجب عليهم دفاعاً عن بيتهم المقدس الذي يحجون إليه، فاعترضته بعض قبائل العرب فقاتلوه، فقتلهم وهزمهم بجيشه الكبير الذي يفوق جيشهم أضعافاً مضاعفة. وبعض القبائل لم تستطع مواجهة أبرهة وجيشه فطلبوا منه السلام، فكان أبرهة يستولى على بعض أموالهم وممتلكاتهم، وكان مما أخذه واستولى عليه مائتي بعير لعبد المطلب جد النبي ﷺ، وكان وقتها كبير قريش وسيدها، ولما وصل أبرهة إلى موضع في الطائف قرب مكة، أرسل إلى مكة يسأل عن أهل هذا البلد وشريفها، ويخبرهم بأنه لم يأت لحربهم، وإنما جاء لهدم هذا البيت فإن لم يمنعه فلا حاجة له بدمائهم. فلما وصل رسول أبرهة إلى عبد المطلب بالخبر، قال

له عبد المطلب: هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.

فقال المبعوث لعبد المطلب: إن أبرهة يدعوك إليه، فلما جاء عبد المطلب إلى أبرهة، أجله أبرهة وأكرمه وأعظمه، لأنه كان أوسم الناس وأعظمهم، ثم قال أبرهة لترجمانه قل له: ما حاجتك، ماذا تقول فيما أريده؟ فقال عبد المطلب: قل له حاجتي أن يرد إلي مائتي بعير أصابها لي، أخذها مني. فلما سمع أبرهة طلب عبد المطلب قال له: كنت قد أعجبتني لما رأيتك، والآن تطلب مني مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك جئت لهدمه لا تكلمني فيه.

فقال عبد المطلب قولته المشهورة: **إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه.** فقال أبرهة: ما كان ليمنتع مني، فقال عبد المطلب: أنت وذاك، فافعل ما بدا لك. فأخذ عبد المطلب بعيره وعاد إلى قريش وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال وشعابها تخوفا عليهم من أبرهة وجيشه. وقام عبد المطلب ومعه نفر من قريش إلى الكعبة يدعون الله عز وجل ويستنصرونه على أبرهة وجنده. ثم تركوا الكعبة وانطلقوا إلى أعالي الجبال ينتظرون ما سيفعله أبرهة بمكة عند دخولها. وفي الصباح تهباً أبرهة للدخول إلى مكة وهياً فيله الذي جلبه لهدم بيت الله الحرام، الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، كما عند كثير من المفسرين لقوله عز وجل:

"وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (البقرة-127)

ولما وجه أبرهة وجيشه الفيل قبالة مكة برك الفيل في مكانه وقعد، فضربوه ليقوم فأبى القيام، وضربوه بألة من حديد في رأسه ضرباً شديداً فأبى أن يقوم، وأدخلوا في بطنه عصا ليقوم فأبى الفيل إلا القعود، فلما وجهوه راجعاً إلى اليمن قام الفيل يهرول مسرعاً، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ولما وجهوه مرة أخرى إلى الكعبة جلس مرة أخرى بإذن الله وأمره سبحانه، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. بعد ذلك أرسل الله عز وجل عليهم طيراً أبابيل، والطيور الأبابيل هي التي تطير أفواجا متتابعة. وقال كثير من المفسرين أن هذه الطيور هي من نوع الخطاطيف، وكان مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقره وحجران في رجليه، وهي مثل حبات العدس أو فوقها بقليل. وهذه الأحجار لا تصيب أحد منهم إلا هلك وخر مغشياً عليه، فخرجوا من هناك هارين راجعين من حيث أتوا، وكانوا يتساقطون ويمهلكون بكل طريق، وأصيب أبرهة في جسده فمات. ونصر الله بيته وحفظه من أبرهة وجيشه. ولا يزال في حفظ الله من تلك القرون إلى أن يأتي وعد الله، فتهدم الكعبة في آخر الزمان على يد رجل حبشي كما أخبر النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه بقوله: **"يُخَرَّبُ الْكُعْبَةَ ذُو السُّؤْيَقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ"**

(البخاري ومسلم)

واندهش العرب لهذا الحديث الجليل، وفرحوا بحفظ الله لبيتهم، وصارت العرب بعدها تؤرخ بهذه الحادثة، كما هي عاداتهم في التأريخ بالحوادث العظام.

إذن فحادثة الفيل جاءت كآية بين يدي مولد النبي ﷺ وكمقدمة لبعثته عليه الصلاة والسلام، وما سيكون من شأنه في البلد الحرام. قال ابن القيم رحمه الله: **وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك، لأنهم**

كانوا عباد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصراً لا صنع للبشر فيه، إرهافاً وتقدمة للنبي صلى الله عليه وسلم الذي خرج من مكة وتعظيماً للبيت الحرام. وكانت حادثة الفيل أيضاً معجزة من معجزات نبينا ﷺ ودليلاً من دلائل نبوته كما قال القرطبي: قال علماءنا: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت قبله، لأنها كانت توكيداً لأمره وتمهيداً لشأنه ﷺ.

كما تشير هذه الحادثة إلى أن الحق منتصر مهما علا أهل الباطل وعظمت قوتهم، فالله ناصر عباده المؤمنين ما داموا صادقين مع ربهم، ولم يياسوا من روحه سبحانه وتعالى. وفي هذه الحادثة أيضاً التحذير من انتهاك حرمة الله عز وجل. قال سبحانه وتعالى: **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ"** (الحج-25)

وبعد هذه الحادثة وفي نفس العام ولد النبي ﷺ، وكان مولده نذيراً بزوال دولة الشرك والظلم، وبداية لنشر الخير والعدل بين الناس. وسنقف إن شاء الله في الخطبة القادمة مع ولادته ﷺ، كيف كانت وكيف وصفتها أمه آمنة، إن شاء الله تعالى. نسأل الله أن يرزقنا حبه وحب نبيه وحب عمل يقربنا إلى حبه.